صانعة البهجة

فاطمة على محمد

أحد مسارح العرائس المكتملة العدد بأضواء خافتة، إلا من تلك البقعة القوية المثبتة نحو طاولة خشبية متوسطة الحجم، ذو خلفية متحركة، ومُعدة لتكون مسرحًا لتلك الدُمى الخشبية الصغيرة، المزينة بثيابٍ أحيانًا مزركشة لامعة، وأخرى داكنة باهتة، ومشدودة بخيوط حريرية معلقة بأطراف تلك الأعواد الخشبية المتقاطعة، والمُحتضنة بيد ذلك الرجل الأربعيني ذو الشعر الأبيض كليًا، والبشرة الحنطية، وقسمات نهشتها لمحات حزن، وإنكسار باهتة، رغم جهده المُضني للسيطرة عليها ورسم إبتسامة زائفة لإسعاد هذا الكم الهائل من الحضور، فلما لا وهو صانع البهجة للجميع؟!!.

حرك خيوط دُماه بخفة ومهارة، وإتقان على ألحان الموسيقى الشهيرة بـ أوبريت "الليلة الكبيرة". ضحكات مدوية بالقاعة، وترديد قوي كلمات أوبريت (الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كتيرة... ماليين الشوادر يابا م الريف والبنادر) التي تردد صداها أرجاء القاعة لتستقر بين جنبات قلبه وتدغدغه طربًا لسعادة هذه الجموع الغفيرة.

مضت تلك الأربعة وثلاثون دقيقة، لتتعالى التصفيقات الحارة، والهتافات

المشيدة بروعة وجمال العمل، فيُسدل الستار، وترفع الدُمى، كلٍ بيد محركها. والتفت نحوه الجميع مهللين وسعداء به، فقد عاد إليهم معلمهم بعد فترة إنقطاع مزقت أحلامهم ونثرتها بين جنبات تلك القاعة التي أُوصدت لأعوام، وأعوامٍ، ليهتف أحدهم بفرحة غامرة:

- مبارك سيدي.... لم أستشعر هذا النجاح منذ أعوام طويلة، رغم عملي مع الكثير من الأساتذة.

وربتت الأخرى على يده هاتفةً بسعادة كادت أن تخلع قلبها:

- دائمًا ما كنت أردد بأنك الأمهر في مجالنا..... دائمًا ماكنت القدوة والمثل الأعلى لعاشقي الدمى.... فما زالت تحتل عرش المملكة بلا منازع.

انفرجت إبتسامته الجامدة، ليتنهد بقوة، كمن ينفض ثقلاً حَمله بصدره لسنواتٍ طوال، مرددًا بإمتنان، وعرفان:

- شكرًا جزيلاً لكم.... فلولا إلحاحكم، وإصراركم على وجودي بينكم، وعودتي للعمل، ما كنت هنا الآن.... أكرر جزيل شكري.... وأطلب السماح لي بالانصراف.

وغادر القاعة بعدما وضع دُماه بصندوقها الخشبي الكبير دون إنتظار جواب

منهم، تاركًا خلفه أصدقاء، وتلامذة مخلصون، ومحبون له يتبعون إثره بنظرات مشتاقة، مشفقة.

شقة ما.

فتح بابها بهدوء، وسكون عجيب، وملامح أكثر جمودًا، وغموض، وولج إلى الداخل واضعًا مفتاحه أعلى تلك الطاولة الخشبية الصغيرة الحجم والتي تتوسط ردهة الشقة، لينزع عنه معطفه، ويضعه أعلى ظهر المقعد، رافعًا أكمام قميصه حتى منتصف ذراعه، وخاطيًا نحو تلك الغرفة الشبة مفتوحة، ليقف ببابها هنيهة ساحبًا أنفاسًا عميقة، ومحتبسها بصدره للحظات، زافرًا إياها تدريجيًا مع تلك الإبتسامة التي بدأت تغزو قسماته، وتشكلها بإحترافية، ومهارة مُطلقة، ليدفع باب الغرفة ويلج إليها مرددًا بسعادة:

- مساؤك وردي زهرتي.

جاوبه صوتها المغرد بنعومة، ودفئ:

- مساؤك خيرٌ أميري.

إقترب منها جالسًا بطرف الفراش، إلى جوار تلك الزهرة النادرة ذو الأعوام السبعة عشر، ببشرتها الحنطية أيضًا، وعيناها الفيروزية كأعمق المحيطات،

وأنقاها، أما خصلاتها التي نافست خيوط الذهب، وانتصرت وتصبح الأقوى بريقًا، وزهوًا.... لتغلق حاسوبها النقال الذي تضعه أعلى تلك الوسادة الأمامية لها، متمتمةً بسعادة ورضا:

- الحمد لله... لقد أتممت إمتحاني النهائي... أتمنى من الله أن يكلله بالنجاح.

ربت والدها على كتفها بحنو بالغ، وتلك الدمعة تلتمع بمقلتيه، ليقهرها بانتصار متنهدًا بسعادة، ومرددًا بفخر:

- "إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً".... هذا وعد من الله زهرتي.... لقد عملتي بجهد وإخلاص لست سنوات متواصلة، أنهيتي جميع مراحلك التعليمية، واليوم أنهيتي آخر امتحان بالسنة الأخيرة بكلية الهندسة، لتكوني أصغر مهندسة بجامعات ألمانيا.

تنهدت "زهرة" براحة، وامتنان للمولي مرددةً بسعادة:

- الحمد لله... فلولا تلك المنحة الدراسية التي منحتها لي السفارة الألمانية، ربما كنت بلاعلم ينفع، وربما كنت بالكاد حصلت على الابتدائية فقط.

ربت " أمير" ثانيةً على كتفها مرددًا بحماسة، وفخر بابنته:

- لولا تفوقك، واجتهادك ماكنتي أكملتي طريقك بنيتي، فذلك المجهود الشاق

الذي بذلتيه بالقسم العملي بالكلية، وتفوقتي به على كامل أقرانك كان له دور رئيسي في إصرار الجامعة على سفرك إليهم بعد أشهر قليلة..... لن أنس مكالمة أستاذك لي، وثنائه وشكره لمجهوداتك، وتفوقك الدائم، ووعده بشغلك لمنصب أستاذة بالجامعة إذا أكملتي مسيرة تفوقك هذه.

تعالت ضحكات "زهرة" المدوية بأنحاء الغرفة، لتردد بتقطع، ودمعات سعادة هاربة من مقلتيها:

- ولن أنس أنا أيضًا، هجومك على "بروفسور جون"، و رفضك لأمر سفري.

ذم "أمير" فمه بتذمر، وهو يزوي مابين حاجبيه هاتفًا بسخط، وإستياء:

- لقد كان سوء فهم مني.... في اعتقادي أنه يريد ذهابك إلى ألمانيا وقتها هو ما تسبب في ذلك الهجوم، إلا أنه أوضح لي حقيقة الأمر، وسفرك بعد الانتهاء من دراستك التي إختزلتي فترتها لأشهر معدودة.... فكم أنتي مخادعة زهرتي!!... أوهمتيني كثيرًا بطول فترة دراستك، لأتفاجك إنك انهيتي سنواتها الخمس بعشرين شهرٍ فقط.

اتسعت ابتسامتها الطفولية فقد أتقنت دورها جيدًا لخداعه، لتردد بنبرة آسفة ماكرة:

- لم أُرد أن أُعشمك أميري، فالكليات العملية صعبة الدراسة عند بُعد... بل مستحيلة، لولا موافقة عميد الكلية، وفتح كاميرا الحاسوب لمراقبة عملي على التصاميم الهندسية، ما كُنت أتممت دراستي.... لقد كان الأمر شاقًا، وكنت أخشى الإخفاق، لذلك خدعتك قليلاً.

تعالت ضحكاته وهو ينهض من مجلسه، حاملاً الحاسوب، ومتجهًا صوب المكتب ليضعه أعلاه مرددًا باستنكار، وتهكم:

- قليلاً!!... أي قليل هذا زهرتي؟!.... لقد لعبتي بي الطابة، لكني سأتناسى كل هذا عندما أرمق شهادة تخرجك من قسم

("الميكاترونيكس"(Mechatronics) هو مصطلح يستعمل للدلالة على حقل هندسي واسع جدًا ومتشعب يجمع بين الهندسة الميكانيكية، والهندسة الكهربائية، وهندسة الحاسوب، وهندسة الإلكترونيات) وبتقدير عام ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى.

تعالت ضحكاتها وهي تزيح تلك الوسادة من أمامها مرددة بتهكم، ومشاكسة:

- ربما تكون تلك المرتبة ثقيلة جدًا أميري، ولا أستطيع حملها وحدي.

إقترب منها بمحبة، ودنا منها مقبلاً رأسها بعشق، نافضًا ذلك الدثار الأبيض

الذي يغطي ساقيها....

عفوا.... أقصد بضع سنتيمترات من ساقيها، فالفراش أسفل دثارها خاويًا تمامًا، ساقين مبتورتين، لتُبتر معهما إبتسامة والدها الذي كافح، وناضل لرسمها طوال الوقت؛ حتى لا تستشعر حزنه، وألمه، فمنذ تلك الحادثة التي فقد بها معشوقته، وفقد معها سيقان صغيرته التي لم تكن تتجاوز العاشرة بعد، شاب مستهتر بحياة البشر، يقود سيارته بجنون جامح، كاد أن يضرب تلك الطفلة الصغيرة بسيارته، لتركض والدتها نحوها، وتدفعها بعيدًا، لكن للأسف دهستها السيارة، ودهست معها سيقان صغيرتها، ودهست معهما روحه و شغفه بالحياة.... لتتعلق زهرته بكلتا ذراعيها بعنقه، وتتعلق معها أحلامه بنجاح مايقدمون عليه اليوم بأبواب السماء، لعلها تكون ساعة استجابة.

حاوط خصرها النحيل بذراعيه، بينما شددت هي من عناقه، ليستقيم بوقفته متجهًا صوب مرحاض غرفتها، وهو يردد بابتسامة:

- ثيابك بالداخل زهرتي... أتمي اغتسالك، وهاتفيني، ستجديني عندك.

ولج إلى المرحاض، ووضعها على مقعدها البلاستيكي المخصص لها، والذي يقترب من صنبور المياه، لترفع أنظارها الممتنة نحوه مرددة ببعض الخجل:

- أعتذر منك كثيرًا أميري، فقد زاد وزني بالفترة الأخيرة، فأنت تعلم جيدًا نهمي بالطعام بفترة الإمتحانات....

وتنهدت تنهيدة حارة أرفقت بها جم أساها، وآلامها، مكملةً بأسف:

- لقد أصبحت ثُقلاً، وعبئًا عليك.... لقد تحملتني طوال تلك السنوات السبع، دون أن تكل أو تمل مني والدي..... لكنه قدرنا المحتوم.

مال نحو رأسها مُقبلاً إياها بحنو بالغ، وهو يردد برضا، وعتاب لها:

- أتستقلين بأميرك لتلك الدرجة زهرتي؟!.... أم أنك تنازلتي الآن عن خدماتي؟.

كادت أن تتفوه، لكنه لمح طيف تلك الدمعات الآسية بعينيها، ليردد بجدية صارمة مغايرًا مجرى الحديث:

- عشر دقائق فقط..... سأنتظرها بالخارج، وبعدها سألج إليك.... فإن لم تنتهِ سأساعدك بارتداء ثيابك كالأيام الخوالي.

تعالت ضحكاتها المستنكرة، وهي تردد بمشاكسة:

- لقد مضت تلك الأيام بلا رجعة أميري، فقد أصبحت فتاة ناضجة الآن، وأصبحت هناك بعض القيود، والخصوصية.... فلتغادر الآن، و سأسمح لك

بالولوج بعد الإنتهاء من إرتداء كامل ثيابي.

أحد المشافي.

بعد مرور قرابة الثلاث ساعات، كان يقف "أمير" مع الطبيب المعالج لإبنته، والذي يطمئنه على تعديل مقاسات الأطراف الصناعية التي سعى جاهدًا لتوفيرها لصغيرته طوال تلك السنوات، لتصبح الآن جاهزة، وقيد التركيب، والاستخدام. تركه الطبيب بين يدي ربه متضرعًا بالدعاء أن تلائم تلك الأطراف حالة إبنته، وأن تعوضها ولو جزءًا صغيرًا مما حُرمت منه لأعوام طويلة، بينما كان الطبيب بالداخل يهيئ "زهرة" لتركيب هذه الأطراف، ويشرح لها طريقة فكها وتركيبها جيدًا، وحتمية وجود فترة للعلاج الطبيعي تقترب من الثلاثة أشهر لتعودها على الحركة والسير بها، كانت "زهرة" تشرد في ردة فعل والدها سعادته حينما يرمقها تخطو أولى خطواتها إليه.

إنتهي الطبيب، ومساعده من تركيب الأطراف الاصطناعية، ليساعداها على الوقوف، و استخدامها للمرة الأولى. نهضت برجفة قوية، واتزان مختل، مادةً يديها جانبًا كالطفل الذي يخطو خطوته الأولى، فيحفظ توازنه باذرعه. لحظة واحدة وكانت تهوي على مقعدها ثانية بألم شديد، لتتنهد بقوة وإصرار وتُعيد المحاولة، ثانية، وثالثة... وعاشرة، والطبيب يحاول مساعدتها بكل

مرة تحاول بها هذا.

لكنها هوت على مقعدها بدماء تفور بأوردتها، وعروق نافرة تستجدي سكونها، وأعين محتقنة بإصرار وعزيمة، لتستند على متكأي المقعد محاولةً النهوض، فهَمّ الطبيب بتقديم يد العون لها، لتنفض يده عنها بقوة مرددة بصرامة:

- شكرًا لك سيدي... مهمتك انتهت عند تلك النقطة، وإرادتي وإصراري سيكملون دربهم لحالهم.... فتلك الصغيرة لم تعتاد الهزيمة قط.

تقهقر الطبيب ومساعده للخلف، بأنفاس تسعى للهدوء، ودقات تتلاطم بقوة جامحة خوفًا على تلك الزهرة من الذبول و السقوط، لتستند "زهرة" ثانيةً بكلتا يديها على متكأي المقعد، رافعةً جذعها لأعلى بثبات جاهدت كثيرًا للتحلي به، فوقفت على تلك الأطراف بتذبذب ملحوظ؛ حتى كادت على تنبطح على وجهها، لتجد يد والدها القوية أحالت بينها، وبين ذلك.

رفعت إليه أنظارها المشتعلة أملاً تشرب بطيف اليأس، ليضمها إلى صدره بسعادة غامرة مرددًا بدمعات ساخنة اخترقت نسيج قميصه:

- مبارك زهرتي... فقليل من المعالجة الفيزيائية، و تهزمي ترنحك هذا.

هزم أملها يأسها، وتوهج بقسمات وجهها، لتشدد من إحتضان والدها مرددةً بسعادة، وعزم:

- حمدًا لله أميري.... حمدًا لله.

بعد مرور شهر واحد.

ثلاثون يومًا جاهدت بهم "زهرة" بمشقة لإنهاء جلسات المعالجة الفيزيائية، واختزلت جلسات شهور طويلة لشهر واحد، فلما لا وهي من إختزلت سنوات تعليمها الاثنتا عشر، إلى ست سنوات فقط؟!.... بعدما إنتصرت على حزنها، ويأسها الذي سرق من عمرها عامٍ كاملٍ.

*مسرح العرائس.

المسرح كعادته بهذا الشهر كامل العدد، بعدما كان مهجورًا لأعوام طويلة، فقائده، وأستاذ فن تحريك الدمى إنتفض من بين أنقاضه وعاد للحياة من جديد؛ حتى وإن كانت ابتسامته مغلولة بأغلال الحزن، والأسى، فأنامله مازالت تعزف جيدًا على تلك العصا الخشبية، وأذنه أيضا مازالت تحفظ ألحان هذا الأوبريت عند ظهر قلب.

العرض قائم، والصمت التام يخيم على المكان، وهو يراقب ملامح الجمهور

المنتبهة بتركيز قوي من خلف ذلك الستار الحاجب له، ولفريقه، ليرمق باب المسرح الخلفي يُدفع بحرص شديد، وتولج منه زهرته الملائكية بكامل أناقتها ولياقتها، عروس مُزينة بحجاب أبيض تعتليه قبعة سوداء، وكذلك فستان وردي يحتضنه رداء أسود بأشرطةٍ ذهبيةٍ، وتلك الإبتسامة تشع الكون حولها ضياءًا.

هبطت الدرج نحوه بخطى رزينة، واثقة، تدوي دقاتها بأرجاء المكان، لينتبه إليها الجميع ملتفتين نحوها بدهشة، وتعجب، رامقين إياها وهي تطوي درجات المسرح الفاصلة بينهما إلى درجة واحدة فقط. درجة إعتلتها بكبرياء وشموخ، وفخر، فقد أصبحت الآن المهندسة "زهرة أمير السعدنى ... مهندسة الميكاترونكس و خريجة جامعة (FH Aachen) بألمانيا"

سيل جارف من عبرات السعادة أخذ بطريقه آلالام، وأحزان تلك السنوات الغابرة، نظرات كادت أن تشتعل بنيران الإحتفال، وشفاه مرتجفة بأحرف صبغت بالإسم معناه، وفؤاد يُلاطم بين جنبات صدره للخروج عبر أضلع تشققت سعادة، وفرحًا لأجل صغيرته التي إشتاق خُطاها طويلاً، وأنامل عزفت أروع سيمفونية للحركة ، فزهرته أينعت، وتقف أمامه بكامل هيئتها، بل وتقترب منه صاعدةً خشبة المسرح مُولية الجمهور ظهرها، و أنظارها مثبتةً نحوه بغموض عجيب دام للحظات طويلة، ثم إستدارت بكامل جسدها

نحو الجمهور مغمضةً عيناها بقوةٍ، لتسيطر على عبرات هزمتها وهطلت شاقةً طريقها نحو شفتيها التي خطت بأحرفٍ إخترقت قلوب الجميع:

- مساء الخير... يقولون دائمًا أن "الأبناء دعامة أبائهم في العجز"، لكن الأمر كان معي مختلف كليًا، فوالدي مَن كان دعامتي!... مَن كان ساقيّ اللتان حُرمت منهما لطيش شاب وتهوره!..... كثيرًا مالمحت بعينيه طيف إنكسار وألم لأجلي..... لكني لم أستشعر تذمره، واستيائه قط.... كان ولازال لي السند والظهر والداعم..... فاليوم أقف بينكم بفضل الله أولاً، وفضله، وإصراره ثانيًا.... اليوم أقف بينكم أنا المهندسة "زهرة أمير السعدنى " ذو السبعة عشرة عامًا، بكل فخر، وعرفان، وإمتنان لمن كان لي طوق الحياة، درع الأمان.

والتفتت إليه بعدما أتى إليها وأصبح مواجهًا لها بعبرات شقت طريقها إلى أرضية المسرح الخشبية، فتلألأت ببريق السعادة، والامتنان لربه. فتح ذراعيه عن آخرهما لتُلقي بذاتها بينهما، متشبثةً بأحضانه بقوة ودمعات فرحتها تلون دروبها بألوان الحياة، والبهجة، مرددة بنبرة إختنقتها دمعات السعادة:

- شكرًا أميري.

شدد من احتضانها بقوة مستنشقًا شذا انتصارها، ليحتبسه بصدره للحظات مرددًا بفرحة تجاوزت حدود المكان، وأُناسه:

- اليوم عادت صانعة بهجتي.

بينما التف حوله تلامذته، وأصدقاؤه بفيضان جارف من دمعات الفرح التي هطلت بلا توقف، كما نهض الجمهور هو الآخر من مقاعده بقلوب راقصة طربًا لألحان صمود وانتصار تُعزف لأول مرة، ألحان تفوقت على أمهر مؤلفي العالم، وسيمفونياتهم.... ألحان كانت الأروع، والأعظم على الإطلاق..

***